مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين١١: ٢٤– ٢٦، ٣٢ – ٤٠)

يا إخوةُ بالإيمان موسى لمَّا كَبُرَ أبى أن يُدعى ابنًا لابنةِ فرعون* مُختارًا الشَّقاءَ معَ شعبِ اللهِ على التمتُّع الوقتي بالخطيئة* ومُعتَبِرًا عارَ المسيح غنًى أعظمَ من كُنوز مِصر. لأنَّهُ نَظَرَ إلى الثواب* وماذا أقولُ أيضًا. إنَّهُ يَضيقُ بي الوقتُ إن أخبرتُ عن جدعونَ وباراقَ وشمشونَ ويفتاحَ وداودَ وصموئيلَ والأنبياءِ* الذينَ بالإيمان قَهَروا الممالكَ وعملوا البرَّ ونالوا المواعِدَ وسَدُّوا أفواهَ الأسود* وأَطفأُوا حِدَّةَ النارِ ونَجَوْا من حَدِّ السيفِ وتَقَوَّوْا من ضُعفٍ وصاروا أشدَّاءَ في الحربِ وكَسَروا معسكَراتِ الأجانب* وأخذت نساءٌ أمواتَهنَّ بالقيامةِ وعُذِّبَ آخرونَ بتوتير الأعضاءِ والضربِ ولم يقبلوا بالنجاةِ ليَحصلوا على قيامةٍ أفضل* وآخرون ذاقوا الهُزْءَ والجَلْدَ

إكرام الأيقونات

تحتفل كنيستنا المقدسة في آخر الأسبوع الأول من الصوم الكبير بأحد الأرثوذكسية، وهو التذكار التاريخي للمجمع المنعقد في القسطنطينية العام ٨٤٣، والذي أعلن الانتصار النهائي لكنيسة المسيح المجيدة على محاربي الأيقونات.

والأيقونات ما هي مجرد فنّ ديني تزييني قوامه التصوير، بمقدار ما هي رموز لسرّ التجسد، أي حضور المسيح المحسوس فيما بيننا، والذي يقدّس حواسنا وكلّ أبعاد وجودنا. «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآبِ» (يو ١: ١٤). القديس يوحنا الدمشقي أبرز منذ القرن الثامن هذا الترابط العضوي ما بين لاهوت إكرام الأيقونات وحقيقة مجيء المسيح إلى الأرض. يقول: «في الماضي، الإله غير المتجسّم وغير المنظور ما كان ليُصوَّر. أما الآن، إذ قد ظهر الإله بالجسد وحلَّ بين البشر، أُصوِّر ما هو مرئي في الله. لا أعبد المادّة، بل أعبد خالق المادّة، الذي صار مادّة من أجلي، الذي اختار أن يحلّ في المادّة، والذي، من خلال المادة، صنع لي الخلاص».

إن الله غير مرئي، «يسكن في النور الذي لا يُدنى منه». لا يمكن لأعينٍ بشريَّة هشّة أن تنظر إليه. لكن كلمة الله «الإبن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبَّر» (يو ١: ١٨). لذلك يهتف الرسول الإلهي بولس بأن «الله ظهر بالجسد» (١ تيمو ٣: ١٦).

الأيقونات الشريفة تعلن إذاً بشكل مرئي سكنى الله في شعبه – الكنيسة. وهذه السكنى كانت التعبير الأجلى عن رحمة الله وعن محبته غير المحدودة للإنسان. فالتجسّد اتحاد حميمي، وتماهٍ شخصي لله مع البشر. هو تدخّل شخصي مباشر لله في حياة الإنسان، تدخّل يكشف المحبّة ويمنح الخلاص. لذلك يقول القديس يوحنا الدمشقي: «إني أبصرت الصورة البشرية لله، فخلصَتْ نفسي».

والأيقونة عربون مجيء المسيح وإقامته فينا. عربون النعمة الحاضرة في الكنيسة، التي تُغني وجودنا بمواهب الروح القدس والأشفية والعجائب. هي استدعاء لحضور المسيح وسكناه فيما بيننا، بل استحضار لشخص المسيح الإله في شركة الكنيسة. «لأنه حيث اجتمع

العدد ١١/ ٢٠١١
الأحد ١٣ آذار
الأحد الأول من الصوم
(أحد الأرثوذكسية)
نقل عظام أبينا الجليل في القديسين
نيكيفوروس رئيس أساقفة
القسطنطينية
اللحن الأول
إنجيل السَحَر التاسع

والقيودَ أيضًا والسِّجن* ورُجموا ونُشِروا وامتُحنوا وماتوا بحدِّ السيف. وساحوا في جلودِ غنمٍ ومَعزٍ وهم مُعوَزون مُضايَقون مجهودون* (ولم يكنِ العالمُ مستحقًا لهم). وكانوا تائهين في البراري والجبال والمغاور وكُهوف الأرض. فهؤلاء كلُّهم مشهودًا لهم بالإيمانِ لم ينالوا الموعِد* لأنَّ اللهَ سبقَ فنظرَ لنا شيئًا أفضلَ أن لا يكمُلوا بدوننا.

الإنجيل

(يو ١: ٤٤–٥١)

في ذلك الزمان أراد يسوعُ الخروجَ إلى الجليل فوجد فيلِبُّسَ فقال لهُ اتبعني* وكان فيلِبُّسُ من بيتَ صيدا من مدينة إندراوسَ وبطرس* فوجد فيلِبُّسُ نَثَنَائيلَ فقال لهُ إنَّ الذي كَتَبَ عنه موسى في الناموس والأنبياءِ قد وجدناهُ وهو يسوعُ ابنُ يوسف الذي من الناصرة* فقال لهُ نَثَنَائيلُ أمِنَ الناصرةِ يمكنُ أن يكونَ شيءٌ صالح* فقال لهُ فيلِبُّسُ تعالَ وانظرْ* فرأى يسوعُ نَثَنَائيلَ مقبلاً إليهِ فقال عنهُ هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيهِ* فقال لهُ نَثَنَائيلُ مِنْ أينَ تعرفني. أجاب يسوعُ وقال لهُ قبل إثنان أو ثلاثة باسمي هناك أكون في وسطهم» (متى ١٨: ٢٠).

القديس ثيوذورس الستوذيتي، أحد أكبر الآباء المدافعين عن الأيقونة، يعلّم أنّ الأيقونة تختص بشخص المسيح وأن الرب حاضر في الأيقونات المقدسة. لذا لا يُسمح لأيّ كان أن يكتب الأيقونة. لا بد لكاتب الأيقونة من أن يكون ابناً أميناً للكنيسة ولتقليدها، وأن يتهيّأ لعمله المقدس بالصوم والصلاة. إن مهمته لا تقوم على مجرّد موهبة أو تقنية فنية، بمقدار ما هي شهادة للإيمان وإعلان للبشارة. لهذا وضع آباؤنا القديسون أُطراً لخيال الفنان فألزموه بقواعد صارمة للشكل واللون، بحيث يُبرز نتاجُه صورة جسد القديس ولكن في أبعاده الإلهية المقدسة.

لقد كان إكرام الأيقونات خاصيّة تميّز الكنيسة الأرثوذكسية. أما تراجع الفن الأيقوني، فكان، عبر التاريخ، يعكس شيئاً من التضعضع في الإيمان، كون هذا الفن يتعلّق بشكل مباشر بعيش الإيمان والتعبير عنه. والمألوف في الكنائس القديمة أن تُصوَّر جدران الكنيسة بجملتها لتُصوِّر حالة الكنيسة الممجدّة بحضور القديسين فيها. «إذ لنا سحابةٌ من الشهودِ مِقدارُ هذه محيطَةٌ بنا» (عب ١٢: ١). هذه إطلالة على واقع الكنيسة غير المنظور. المجمع السماوي يُصوَّر على الجدران كونه حاضراً في العبادة بحال غير منظورة.

هكذا يلتحم عيد إكرام الأيقونات بذكرى الأرثوذكسية، أي «سحابة الشهود» الذين ضحّوا بكل شيء ودفعوا الثمن الباهظ من أجل صون وديعة الإيمان. هؤلاء يشهدون لمحبّة الإله، ويظهرون للعيان اقتدار صليب المسيح الكريم وآلامه الطاهرة، التي تقودنا إليها مسيرة الصوم الأربعيني المقدس، في هذه الأيام.

نحن والأيقونات

لا يخلو منزل أيٍّ مسيحي من الأيقونات التي تتنوَّع أشكالها ومصادرها، إضافة إلى أنّنا نستعمل الأيقونات في الكثير من الأماكن، وربما باستعمالنا إيّاها، عن نيّةٍ حسنة في بعض الأحيان، نسيء إليها وإلى مَن تُمثّل من أشخاص إلهيين.

لقد وضعت الأيقونات للمساعدة في التركيز على الصلوات وللشعور بالحضور الإلهي إذ إنّ الإنسان يحتاج أحياناً لحضور ماديّ يذكّره بما هو غير ماديّ ولا منظور. وُضِعت الأيقونات أيضاً لمساعدة أولئك الذين لا يعرفون القراءة على قراءة الكتاب المقدّس مصوَّراً، لذلك نسمع أحياناً عبارة «كتابة الأيقونات» وليس «رسم الأيقونات» للدّلالة على أنّ الأيقونة هي إنجيلٌ مرسوم.

لقد أوعزت إلينا كنيستنا المقدّسة بإكرام الأيقونات أي بإكرام مَن تمثّل هذه الرسوم المقدّسة من أناس إلهيين. نحن لا نعبد الأخشاب أو الألوان أو أيّ مادّة تُصنع منها الأيقونة، الأمر الذي عبّرت عنه الملكة ثاودورة عام ٨٤٢ مميّزة بين سجود الإكرام الذي يليق بالأشخاص المصوَّرين في الأيقونة وبين سجود العبادة الذي من الممكن أن يُفهم أنّه سجود للمادّة المصنوعة منها الأيقونات وتالياً يصبح كالسجود للأصنام.

إذاً، نحن مدعوون إلى إكرام

أن يدعُوَك فيلبُسُ وأنت تحتَ التينةِ رأيتُك* أجابَ نَثَنَائيلُ وقال لهُ يا معلّمُ أنت ابنُ اللـه أنتَ مَلِكُ إسرائيل* أجابَ يسوعُ وقال لهُ لأنّي قلتُ لك إنّي رأيتُكَ تحت التينة آمنتَ. إنَّك ستُعاين أعظمَ من هذا* وقال لهُ الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم مِنَ الآن ترونَ السماءَ مفتوحةً، وملائكةُ اللـه يصعدون وينزِلون على ابن البشر.

تأمل

يضعف المجاهدون خلال فترة المعركة، وفي النهاية فقط يمكن أن يتذوّقوا الراحة عندما يأخذون إكليل النصر، إن أخذوه!

لا يحدث الأمر نفسه مع المسيحيين لأنّ مجاهدي المسيح يشعرون بالفرح والافتخار حتى خلال المعركة، وهذا تبرهنه لنا سِيَر القديسين. يقول يعقوب أخو الرب: «خذوا يا إخوتي مثالاً لاحتمال المشقّات والأناة الأنبياءَ الذين تكلّموا باسم الرب» (يع٥: ١٠). وعندما أشار الرسول بولس أولاً إلى أتعاب القديسين كلّهم التي لا تُحصى، أضاف: «رُجموا، نُشروا، جُرّبوا، ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معز، معتازين، مكروبين، مُذَلّين ولم يكن العالم الأيقونات والسجود لها وتقبيلها، فأين نحن من الأيقونات في أيّامنا هذه؟ كثيراً ما نرى أموراً عديدة مزيّنة بالأيقونات كقوالب الحلوى وأوراق النَّعي والملصقات الداعية إلى محاضرة مثلاً حتى أننا أصبحنا نرى الشوكولا يُلَفّ بأوراقٍ عليها أيقونات. إذا تأملنا في هذه الأمور نرى أنّ ما يُصنع بالأيقونات حالياً غير لائق. قليلون هم مَن يأكلون الغلاف المصنوع من السكر الذي يوضع على قوالب الحلوى، فيكون مصيره كمصير الأيقونة المطبوعة عليه في سلّة المهملات. كم من مرّة نمشي في الشوارع ونجد أوراق النّعي مرمية أرضاً تتقاذفها الأرجل، هذه الأوراق إن لم يكن عليها أيقونات أحياناً نجد عليها الصليب المجيد. إضافةً إلى ذلك، نحن نزيّن الملصقات التي نستعملها لدعوة الناس إلى محاضرات ومعارض وأمسيات ترنيمية بالأيقونات ، فهل ننتبه أنّه متى ينتهي تاريخ الدعوة علينا ألاّ نرمي هذه الملصقات بل أن نقوم بأمر يليق بالأيقونة التي عليها؟! من منّا يتذكر ألاّ يرمي الورقة التي تغلّف قطعة الشوكولا إذا كان عليها أيقونة؟

إنّ عصرنا يصبح تجاريًّا أكثر فأكثر، إذ أصبحت المقدَّسات من أيقونات وغيرها تُباع بأسعار مرتفعة لتُستعمل كبضائع نستخدمها في احتفالاتنا ونرميها فيما بعد. هذا الأمر يحدث نتيجة إنخفاض الوعي والحسّ الكنسيَّين والروحيَّين لدى المسيحيين خصوصاً.

أمرٌ آخر يلفتنا هو كيف تتحوَّل الأيقونات إلى تُحَف نجمعها من كلّ قطر وصوب ونتباهى بها معلّقين إيّاها على جدران منازلنا ومخبرين زوارنا عن أسعارها الباهظة وقيمتها التاريخية. أين القيمة الروحية للأيقونة؟ الأيقونة أيقونةٌ، ورقيّةً كانت أو رسماً، خشبيةً أو من ذهب. قيمتها تعود إلى مَن تُمثّل من السيد المسيح أو والدته الطاهرة أو أيٍّ من القديسين. ما النفع من تعليق الأيقونات من دون الصلاة أمامها والتعلّم من حياة صاحبها أو من المشهد الذي تمثّله لنا؟

علينا أن نعي أهميّة الأيقونات وألاّ نقوم بأيّ أمر مهين تجاهها، وعندما نريد استعمالها علينا أن نفكّر جيداً في ما إذا كان هذا الإستعمال لائقاً بها أو لا. كما يجب ألاّ نتعامل مع الأيقونات بازدراءٍ لأنّها تمثّل إلهنا ووالدته وأنبياءه ورسله وجميع قدّيسيه الذين أرضوه منذ الدهر. لا أحد منّا يستهتر بصور والديه أو إخوته أو أصدقائه أو أحبّائه، فإذا كانت هذه حال صور الأحبّاء الأرضيين فكم بالحري يليق الإكرام بصور الأحبّاء السماويين؟!

صلاة النوم الكبرى

لقد بدأ الرب يسوع المسيح بشارته بالدعوة إلى التوبة: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات»(متى ٤: ١٧). هذه الدعوة للتوبة موجهة لنا أيضاً في كل لحظة من لحظات حياتنا. رغم ذلك خصصت الكنيسة سبعة أسابيع في السنة (أسابيع الصوم الستة مع الأسبوع العظيم) تتكثف فيها الدعوة للتوبة ونتعلم خلالها عن التوبة لكي ننمّي مفاهيم إيماننا المسيحي. الصوم هو مدرسة التوبة والمصالحة مع الله ومع أنفسنا والآخرين. انه رحلة حج جميلة نكتشف فيها مجدداً طرق الحياة المسيحية الحقة. معنى

مستحقاً لهم» (عب١١: ٣٧–٣٨)، وبهذه كلّها يفرحون! وهذا ما تؤكّده لنا أعمال الرسل أيضاً، حيث يُذكر أن الرسل القديسين، عندما ضُربوا بالعصا بقرار من أعضاء المجمع اليهودي «ذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (٥: ٤٠–٤١).

الأمر نفسه نراه يحصل في القرون التالية. ماذا فعل الطغاة السفاحون في فترة الاضطهادات؟ كانوا يمسكون بابنةٍ شابة، عذراء وطريّة العود، جسدها أكثر ليونة من الشمع، يسمّرونها على الخشب، ويمزّقون جسدها بأظفارٍ حديدية، وكان الدم يجريَ نهراً من جراحها البليغة. لكنّ عروس المسيح الكلية الطهارة كانت تحتمل العذابات بصبر لأجل ملكوت السموات. هكذا، بقدر ما كانت الشهادة تدوم وقبل أن ينتهي جهادها، كانت تأخذ إكليل النصر. فكّر كم كان يخجل الطاغية حيث كانت الابنة تنتصر وتحقّره وهو الذي كان يحيط به الجنود الأقوياء بسيوفٍ قاطعة. أترى التجربة والحزن يصبحان مراتٍ كثيرة سبباً للإفتخار؟ فضلاً عن ذلك، هذا ما نؤكّده كلّنا بالتكريمات التي نرفعها للشهداء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الصوم وروحانيته مُعبَّر عنهما في طقوس العبادة التي تقام في هذه الفترة. من هذه الخِدَم صلاة النوم الكبرى التي نقيمها طيلة فترة الصوم الكبير من الإثنين إلى الخميس من كل أسبوع.

تركز هذه الصلاة كثيراً على موضوع التوبة. نقرأ خلالها المزمور ٥٠ «ارحمني يا الله كعظيم رحمتك» الذي كتبه داود النبي تعبيراً عن توبته. كما نقرأ صلاة منسى ملك اليهودية التي كتبها عندما ندم على إدخال عبادة الوثن إلى اليهودية: «أيها الرب الضابط الكل... التواب على مساوئ الناس... وضعت التوبة لي أنا الخاطئ، فإني قد أخطأت أكثر من عدد رمل البحر، قد تكاثرت آثامي يا رب... الآن أحني ركبة قلبي مبتهلاً إلى صلاحك... لكني أسألك متضرّعاً اغفر لي يا رب... لأنك أنت هو الله إله التائبين...» إضافة إلى صلوات أخرى تحثنا على الإعتراف بأننا خطأة وبحاجة إلى التوبة ورحمة الله.

المزامير التي تُقرأ في صلاة النوم الكبرى تحضنا على تسليم أنفسنا للعناية الإلهية. «عليك يا رب توكلت فلا أخزى، في يديك أستودع روحي» (مز ٣٠)، «إليك يا رب رفعت نفسي، إلهي عليك توكلت» (مز ٢٤). نسلم أنفسنا إلى الله ونتضرّع إليه أن يستجيب لنا. «اللهم أصغِ إلى معونتي، يا رب أسرع إلى إغاثتي» (مز ٦٩)، «يا رب استمع صلاتي وأنصت بحقك إلى طلبتي، استجب لي بعدلك» (مز ١٤٢).

الترانيم التي نرنمها في هذه الصلاة تُعلن ان الله وحده هو رجاؤنا وهو معيننا: «معنا هو الله فاعلموا أيها الأمم وانهزموا لأن الله معنا»، «يا رب القوات كن معنا فإنه ليس لنا في الأحزان معين سواك». نثق بمعونة الله طالبين شفاعة والدة الإله والقديسين «يا رب لولا ان قديسيك يكونون شفعاء لنا... كثيراً تكاثرت ذنوبي يا والدة الإله... فافتقدي نفسي الضعيفة وتشفعي إلى ابنك وإلهنا أن يعطيني غفران المساوئ التي فعلتها».

السجدات المرافقة لصلاة القديس افرام السرياني «أيها الرب وسيد حياتي...» تدل على خضوعنا لله واعترافنا بذنوبنا. تدل أيضاً على اننا، رغم سقوطنا في الخطايا، سننهض بالتوبة وبمعونة الرب.

إحدى الصلوات التي تُتلى في صلاة النوم: «واعطنا أيها السيد إذ نحن منطلقون إلى النوم راحة نفس وجسد» نطلب فيها إلى الله أن يحفظنا في الليل المقبل من كل أنواع الخطايا والشهوات، ونطلب إليه، فيما نحن منطلقون إلى النوم، وهنا الغرابة، أن يمنحنا عقلاً ساهراً وقلباً مستيقظاً ونوماً خفيفاً معتَقاً من كل تخيّل شيطاني. تذكرنا هذه الصلاة بدعوة يسوع لنا إلى السهر واليقظة الدائمة. المهم هو اليقظة الروحية والاستعداد الدائم لملاقاة الرب وليس السهر دون نوم. كما يذكرنا بالعذارى العاقلات الساهرات المستعدات للقاء العريس الآتي في لحظة لا يعرفنها. سعينا أن نكون مثل العذارى العاقلات، والصوم مناسبة مؤاتية لكي نربي في أنفسنا هذا الحس.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb